المحاضرة التاسعة: جهود القدماء والمحدثين في دراسة البيان النبوي.

تمهيد

على الرغم من كون الحديث النبوي الشريف المصدر الثاني للتشريع الإسلامي، واحتلاله المنزلة الثانية في مجال البلاغة و البيان، فإن الدراسات البلاغية في عصر التدوين تركزت حول كتاب الله عز وجل، باعتباره أول كتاب دوِّن في تاريخ اللغة العربية، وعلى ضوئه سارت حركة التدوين وبإشرافه تأثرت فكثر البحث في بلاغته وسر إعجازه، وعلومه المختلفة، وهذا ما لم يتوفر للحديث النبوي الشريف، فلم يُحَلِّلْ الدارسون النصوص النبوية، ولم يتعرضوا لدراسة مزايا أسلوبها، وبيانه، بل اكتفوا بتخريج الأحاديث وتصحيحها وترتيبها وتبويبها، وذكر أسانيدها وشرح معانيها، والتثبت في الراوي والمروي، وقلَّ تناولهم للجوانب البلاغية فيها، فشحت المصنفات في هذا المضمار.

و من هذه الدراسات التي تعد قليلة مقارنة بما كتب حول القرآن الكريم في الجانب البلاغي نذكر على سبيل المثال لا الحصر: (المجازات النبوية) للشريف الرضي، توفي سنه465هـ، و(النهاية غي غريب الحديث والأثر) لابن الأثير، توفي سنه606هـ، ومن الدراسات المعاصرة كتاب (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) لمصطفى صادق الرافعي، و كتاب (كنوز السنة) للصابوني، وكتاب (التصوير الفني في الحديث النبوي) لمحمد الصباغ.

أولا: جهود القدماء في دراسة البيان النبوي

1- الشريف الرضي:(359هـ 406 - هـ 969م–1015 م (**في كتابه (المجازات النبوية 461 صفحة)**

كان يذكر الحديث شاهدا أو مثالا مع ذكر آيات مناسبة في خلالها فبلغ عدد الأحاديث ما يقرب من 360 حديثا. بين فيها مقدار الفصاحة والبلاغة التي استفيدت من مضمون الأحاديث قائلا في مقدمته: " فإني عرفت ما شافهتني به من استحسانك الخبيئة التي أطلعتُها والدقيقة التي أثرتها من كتابي الموسوم (تلخيص البيان من مجازات القرآن) وأني سلكت من ذلك حجة لم تسلك وطرقت بابا لم يطرق،وما رغبت فيه من سلوك تلك الطريقة في عمل كتاب يشتمل على مجازات الآثار الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ كان فيها كثير من الاستعارات البديعة، ولُمع البيان الغريبة. وأسرار اللغة اللطيفة، يعظم النفع باستنباط معادنها، واستخراج كوامنها، وإطلاعها من أكمّتها وأكنانها. وتجريدها من خللها وأجفانها، فيكون هذان الكتابان بإذن الله لُمعتين يستضاء بهما وعرينين لم أُسبق إلى قرع بابهما، فأجبتك إلى ذلك – مستخيرا الله سبحانه فيه– على كثرة الأشغال القاطعة" [1]

[1]– الشريف الرضي (محمد بن حسين)، المجازات النبوية، تصحيح، مهدي هوشمند، دار الحديث، قم، إيرانن، 1380هص27.

2- الجاحظ: في كتابه (البيان والتبيين)

" وسنذكر من كلامه صلى الله عليه وسلم، ما لم يسبقه إليه عربي، ولا شاركه في أعجمي ولم يُدّعَ لأحد ولا ادّعاه أحد، مما صار مستعملا ممثلا سائرا.

فمن ذلك قوله: "يا خيلَ الله اركبي. و وقوله: "مات حتف أنفه. وقوله: لا تنتطح فيه عنزان. وقوله: الآن حميَ الوطيس".[1]

وأنا ذاكر بعد هذا فنا آخر من كلامه صلى الله عليه وسلم، وهو الكلام الذي قل عدد حروفه وقل عدد معانيه، وجل عن الصنعة ونُزِّه عن التكلف، وكان كما قال الله تبارك وتعالى: "...وَمَا أَنَا مِنَ المُتَكَلِّفين" ص86. فكيف وقد عاب التشديق، وجانبَ أصحاب التقعيب[2]*، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشيَّ، ورغِبَ عن الهجين السوقيّ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حَفَّ بالعصمة، وشُيِّد (سُدِّد) بالتأييد، ويُسِّر بالتوفيق.

وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشّاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حَسْن الإفهام وقلة الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة، ولا زلت به قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يَبُذُّ الخُطَبَ الطوال بالكلِم القصار، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق، ولا يطلب الفَلْجَ* إلا بالحق، ولا يهمز ولا يلمز* ولا ببطيء ولا يعجل، ولا يُسهب ولا يحصر*.

ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعمَّ نفعا، ولا أقصد لفظا، ولا أعدل وزنا' ولا أجمل مذهبا، ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا، ولا أفصح معنى، ولا أبين في فحوى (الفحوى = المعنى) من كلامه صلى الله عليه وسلم كثيرا"[3].

---

[1]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج2، ص15.

*- التقعيب كالتقعير، وهو أن يتكلم بأقصى قعر فمه.

[2]- نفسه، ص17.

*- الفلج بالسكون وبالتحريك الفوز والظفر كما في اللسان.

*- الهمز= العيب في الغيبة. واللمز = العيب في الحضرة.

*- حصر يحصَرُ حصرا ، من باب تعب، عي في كلامه.

[3]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج2، ص17-18.

قال محمد بن سلام: قال يونس بن حبيب: "ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم".[1]

وقد جمعت لك في هذا الكتاب جملا التقطناها من أفواه أصحاب الأخبار. ولعل بعض من يتسع في العلم، ولم يعرف مقادير الكَلِم، يظن أنا قد تكلفنا له من الامتداح والتشريف، ومن التزيين والتجويد، ما ليس عنده، ولا يبلُغُه قدرُه. كلا والذي حرّم التزيُّد عند العلماء، وقبّح التكلف عند الحكماء، وبهرجَ الكذابين عند الفقهاء' لا يظن هذا إلا من ضلَّ سعيُه.

فمن كلامه صلى الله عليه وسلم حين ذكر الأنصار فقال: أما والله ما علمتكم إلا لتقلون عند الطمع وتكثرون عند الفزع. وقال: الناس كلهم سواء كأسنان المشط. والمرء كثير بأخيه. ولا خير في صحبة من لا يرى لك مثل ما ترى له

وقال الشاعر: سواء كأسنان الحمار فلا ترى لذي شيبة منهم على ناشئ فضلا

وقال آخر: شبابهم وشيبهم سواء فهم في اللم أسنان الحمار

و'ذا حصّلت تشبيه الشاعر وحقيقته ، وتشبيه النبي صلى الله عليه وسلم وحقيقته عرفت فضل ما بين الكلامين. ..فتفهم رحمك الله قلة حروفه وكثرة معانيه.[2]

ثم يسترسل الجاحظ في الحديث عن بيانه صلى الله عليه وسلم ممثلا ومدللا بالشعر والنثر من أقوال الصحابة والشعراء والبلغاء من الصفحة 21 إلى الصفحة 44. وإليك ما ورد في الصفحة29: قال محمد بن علي (**وهو محمد بن علي بن عبد الله بن عباس والد السفاح والمنصور وهو أول من نطق بالدعوة العباسية ت 125هـ)** : " أدب الله محمدا بأحسن الآداب، فقال: (خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين) فلما وعى قال: (ما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله).

3- ابن الأثير في كتابه (النهاية في غريب الحديث والأثر): ومن الذين كان لهم عناية بالبيان النبوي مجد الدين بن الأثير الذي وصف بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم قائلا: "وقد عرفت -أيدك الله- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أفصح العرب لسانا، وأوضحهم بيانا، وأعذبهم نطقا وأسدَّهم لفظا، وأبينهم لهجة، وأقربهم حجة، وأعرفهم بمواقع الخطاب، وأهداهم إلى طريق الصواب، تأييدا إلهيا، ولطفا سماويا، وعناية ربانية، ورعاية روحانية، حتى لقد قال له علي بن أبي طالب كرم

[1]- نفسه، ص18.

[2]- نفسه 18-19

الله وجهه– و سمعَه يخاطب وفد بني نهد–: يا رسول الله نحن بنو أب واحد، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره. فقال: " أدبني ربي فأحسن تأديبي، وربيت في بني سعد"[1].

ثاني– جهود المعاصرين في دراسة البيان النبوي

1– مصطفى صادق الرافعي في كتابه (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) قضى الأديب مصطفى صادق الرافعي رحمه الله أعواما من حياته في دراسة كلامه صلى الله عليه وسلم، في كتابه (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) في القسم الثاني من الكتاب. وقد تناول كلامه صلى الله عليه وسلم في المباحث التالية: – (فصل في البلاغة الإنسانية. – فصاحته صلى الله عليه وسلم (توفيق من الله بغير تدريب ولا رواية، مكان لغته من لغة قومه، نشأته اللغوية، إقرار العرب بفصاحته).

– صفته صلى الله عليه وسلم (نفسية المتكلم في أسلوب كلامه. الأسلوب العصبي بيانه وبيان الفصحاء "أدبني ربي فأحسن تأديبي". – إحكام منطقه (ص): (الملاءمة بين الحروف باعتبار أصواتها ومخارجها. عيوب الصوت. الترتيل والسرد تعبير الصوت. وتغير اللغة.– اجتماع كلامه وقلته (ص): (حركات نفسية في ألفاظ الإيجاز والقصد. أسباب القلة. بلاغة الصناعة وبلاغة الطبع.

– نفي الشعر عنه (ص): (إنشاد الشعر، الرجز في الشعر."الشعراء يتبعهم الغاوون". وفد ثقيف. بغضه الشعر منذ نشأته.أوثان الشعراء. استثناء الشعر وروايته شعراء النبي صلى الله عليه وسلم.

– تأثيره (ص) في اللغة☹ما أحدثه من التراكيب في لغة العرب، المصطلحات والأوضاع المفردة، تاريخ أوضاع اللغة، مخاطبته وفود العرب، اختصاص قريش بالتجارة، ابتداء صناعة الكتابة، رسائله إلى قبائل العرب بلغاتها، فطرة لغوية تتميز بالإلهام، لغة العرب قبل الإسلام وبعده، علم غريب الحديث.

– نسق البلاغة النبوية: (حروف اللغة ووجوه البيان إنما هي مناقلة الحديث بلا صنعة ولا تكلف. أمثلة من البيان. بيان القرآن والبلاغة النبوية. أثر النفس الإنسانية وطابع الوضع الإلهي. معارضة القرآن بكلام النبوة.

– دعائم البلاغة النبوية: الخلوص والقصد والاستيفاء.

وصف الرافعي لكلامه صلى الله عليه وسلم:"... قطعا من البيان، فأراه ينقلني من الحالة التي أتأمل فيها روضة تتنفس على القلب، أو منظرا يهز جماله النفس، أو عاطفة تزيد بها الحياة في الدم، على

[1]– ابن الأثير (مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري) النهاية في غريب الحديث والأثر ج1، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناجي، المكتبة الإسلامية لصاحبها: الحاج رياض الشيخ

هدوء وروح إحساس ولذة؛ ثم يزيد على ذلك أنه يصلح من الجهات الإنسانية في نفسي، ثم يرزق الله منه رزق النور فإذا أنا في ذوق البيان كأنما أرى المتكلم صلى الله عليه وسلم وراء كلامه".[1]

2- **محمد بن لطفي الصباغ*** **في كتابه** (الحديث النبوي مصطلحه بلاغته كتبه)، المكتب الإسلامي بيروت دمشق، ط4، 1981. وهو كتاب شامل .

يتضمن الباب الأول (قضايا حول السنة ومكانتها: ف1-واقع السنة، ف2 دراسة الحديث ضرورة لازمة لطالب العلم، ف3-مكانة الحديث في الشريعة، ف4- تدوين السنة...

الباب الثاني: البلاغة ومكانة السنة في اللغة والأدب (ف1-بلاغة الحديث النبوي وأسبابها.ف2-أداء الرسول -ص- للحديث.ف3- معاني الحديث. ف4-أسلوب الحديث: البعد عن التكلف-التصوير في الحديث-دقة الوصف في الحديث-موسيقى الحديث-الحوار في الحديث- الإيجاز- الأصالة. ف5- موازنة بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث.

الباب الثالث (مصطلح الحديث).ف1- الحديث والسنة والخبر والأثر. ف2- المتن والسند. فصل3- الحديث القدسي.ف4- رواية الحديث بالمعنى. ف5- الرواية والدراية وأهم علوم الحديث. ف7- المصطلحات الاختزالية. ف8 – أنواع الحديث.ف9..... وهناك باب رابع وباب خامس.

---

[1]- الرافعي (مصطفى صادق): وحي القلم ج3، دار مصر للطباعة والنشر، سعيد جودة السحار وشركاؤه، 2000، ص 6-7.

*- هو محمَّد بن لطفي الصبَّاغ، وُلد بدمشقَ سنة 1348)هـ/ 1930م): عالم سلفيٌّ، وفقيه شافعيٌّ، وداعية مربٍّ، ووجيه مُصلِح، من عُلَماء العربيَّة وأُدَبائها، وهو باحثٌ ومحقِّق، وكاتبٌ ومصنِّف، وخَطيبٌ ومحاضِر، من الفُصَحاء.